بسم الله الرحمن الرحيم

وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين

-الحلقة الثانية-

للشيخ/ أبي يحيى الليبي

بسم الله الرحمن الرحيم

إذاً فهذه الآية الكريمة تُعد عنواناً جامعاً لهذه الشريعة العظيمة، فكلما كان المرء أكثر أخذاً بها وتمسكاً بأحكامها وفهماً لمضمونها وسيراً على طريقها كان حظه من الرحمة في نفسه وأهله ومجتمعه وعالمه كبيراً وفيراً، وما نَقَصه من ذلك أدى إلى نقصِ حظِّه من الرحمة بحسبه، ومِن هنا قامت قاعدة الإسلام على الاستسلام والاتباع مع تيقن المسلم المستسلم أن الخير كل الخير في تمسكه بدين الله تعالى واتّباعه لحكمه حتى ولو لم تظهر له الحِكمة، فلا يعترض عليه بِلمَ ولا كيف؟ : {يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} [الأنبياء/ ٢٣]، {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا} [الحشر/ ٧] ولا يرده بدعوى مناقضة عقلٍ ولا منازعة إلفٍ أو عرفٍ ولا مخالفة عصرٍ ولا معارضة سياسةٍ، ولا تكدير ذوق؛ لأنه قد استقر في أعماق قلبه أن ما يسير عليه ويهتدي به إنما هو حُكم أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين، الذي حكَمَ فأحكم وشرع فرحم سبحانه، ويكفي هذا لأن يكون المرء مستسلماً مطمئناً راضياً مستيقناً بحسن العاقبة له في الدنيا والآخرة، أمَّا التوقّف عن الانقياد للحكم أو التلكؤ والتردد في ذلك حتى يظهر له ما يظنه خيراً ويعاينه واضحاً جلياً في سائر الأحكام أو التربص حتى تعرض تلك الأحكام لما يظنه عقله الواهم من كونه ميزاناً مقوّماً فإن هذا مسلك رديٌّ مُردٍ، فأين علم المخلوق المحدود القاصر من عِلم الخالق الذي وسع كل شيء، فمن المعلوم قطعاً أن هذه (الضوابط) التي يريد بها بعض المتهوكين أن يجعلوها حاكمة على الشريعة غير منضبطة ولا هي قائمة على أساس ركين ثابت سواء كانت عقلية أو عرفية أو سياسية أو حضارية أو زمنية أو مكانية أو غير ذلك، فالتفاوت بين العقول ذكاء وغباءً كما بين السماء والأرض، فبأي العقول تقوَّم الشريعة وتُحكَم أحكامها، وأعراف الناس وعاداتهم وما تواطأوا عليها واستحسنوه وألفوه منها لا يجادل مجادلٌ في اختلافها وتنوعها وتقاربها وتباعدها وتوافقها وتضادها فأي الأعراف أحق بالاتباع لتكون هي القيِّمة على الشرع، وقل مثل ذلك فيما يسمى بالحضارة وتطور الأعصار، فإذا جعل شيء من ذلك هو الميزان الذي يرد إليه الشرع قبل قبوله والاستسلام إليه لصار دين الله شتاتاً تبعاً للأهواء المتنازعة، والعقولة المتعارضة، والحضارات المتصارعة، والعادات المتدافعة، ولأصبح بذلك كغيره من الأفكار المتولدة من طول المراس والتجارب، أو المتفتقة عن توقد الأذهان وحذاقة الآراء، أو الناشئة تبعاً لتطور العصور

ومثل ذلك لا يلبث أن يولد ثم يموت إن لم يولد ميتاً أصلاً، وبهذا ترجع البشرية إلى نقطة الصفر وهي البحث عن الرحمة المفقودة فتفنى الأجيال وتتبدل الدول وجحيم الأهواء هو الحاكم القائم وضنك العيش هو المتمكن.

بل كثيراً ما يظهر للمرء أولَ الأمر أن ما سيقوم به لا خيرَ فيه أصلاً أو أن ضره أكبر من نفعه والعكس كذلك، فلو عُطِّلت الأحكام لمجرد ذلك وتوقف الأخذ بها على استيعاب العقل لها استيعاباً تاماً ومعرفة تفاصيل مداخلها ومخارجها، وإدراك دقائق حِكَمها، والاطلاع على تمام مآلاتها لأدى هذا قطعاً إلى تعطيل الشرع وإبطال أحكامه، ولا يعني ذلك أنه ليس للمرء أن يعمل عقله باحثاً عن أسرار الشرع ومنقباً عن حِكَمه التي يزداد بها إيماناً، فهذا مجالٌ عظيمٌ يتسابق فيه المتسابقون المستسلمون للشرع المستيقنون بأحكامه وحِكَمه لا المعترضون عليه أو المتوقفون عن أخذ أحكامه إلا بعد الاعتراض عليها بعرضها على ما يشاؤون من الأوهام.

روى البخاري وغيره عن أبي جحيفة قال سألت علياً رضي الله عنه هل عندكم شيء مما ليس في القرآن؟ فقال: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما عندنا إلا ما في القرآن إلا فهماً يعطى رجل في كتابه...الحديث، فالعالم المستنبط للأحكام الذي آتاه الله فهماً لكتابه لا يتخذ عقله وفهمه ذريعةً لرد النصوص أو التوقف عن الأخذ بها أو إقامة العراقيل المتنوعة التي تصد عنها وإنما يقوم بمهمة الاستنباط المؤسس على الفهم بناءً على أن هذا الكتاب العظيم هو كلام الله ووحيه إلى نبيه صلى الله عليه وسلم فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

فتأمل قوله تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة/ ٢١٦].

فالنفوس –وبحسب ظاهر أمر القتال – تراه لا ينفك عن القتل، والجراح، والأسر، والتهجير، وتدمير البيوت، ومفارقة الأهل والأوطان، وإنفاق الأموال مع ما فيه من المشقة والنَّصَب والآلام وغير ذلك مما لا تكاد تحتمله، فيحصل بذلك نفرة لها من هذه العبادة وتستشعر بثقلها وتود أن لو أُريحت منها، فكشف الله لنا أمراً وراء ما نظن بل بعكس ما قد يبدو! وهو أن الخير قد يكون فيما نكرهه، وأن الشر قد يقع من وراء ما نحبه ونألفه ونرغب فيه ونميل إليه، ثم قرر لنا أمراً عاماً وهو الذي يبنى عليه أمر أحكام الشرع ألا وهو قصور علم المخلوق

وشمول علم الخالق : {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ والأرض ولا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}[البقرة/ ٢٥٥]، وقال سبحانه : {قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وما في الأرضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[الحجرات/ ١٦].

ولهذا قال الإمام ابن جرير في آية القتال السالفة: «والله يعلم ما هو خيرٌ لكم، مما هو شر لكم، فلا تكرهوا ما كتبتُ عليكم من جهاد عدوكم، وقتال من أمرتكم بقتاله، فإني أعلم أنّ قتالكم إياهم، هو خيرٌ لكم في عاجلكم ومعادكم، وترككم قتالهم شر لكم، وأنتم لا تعلمون من ذلك ما أعلم، يحضّهم جل ذكره بذلك على جهاد أعدائه، ويرغِّبهم في قتال من كفر به» اهـ.

ومثل ذلك قوله تعالى : {وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا} [النساء/ ١٩]، فالمرء قد لا يرجو من الخير إلا أن يعيش في آنه مع أهله بسعادةٍ يطلبها وراحةٍ يرنو إليها حتى إذا شابَهُ في حياته كدرٌ منها فكرهها قلبه بادر إلى طلاقها طلباً للراحة وسعياً وراء السعادة، فبين الله تعالى في هذه الآية أن الخير (الكثير) الذي يجعله الله تعالى قد يكون في الصبر عليها وتحمل أذاها وحسن معاشرتها، فكما ذكر العلماء قد يرزق منها بالولد الصالح فيكون عالماً مجاهداً يبقى صدقة جارية لأبيه ولا خير فوق هذا الخير، فالمقصود أن نظر الإنسان قاصرٌ وعلمه محدودٌ ومعرفته بمآلات الأمور ضعيفة وهذا يستوجب منه الاستسلام لأحكام من أحاط بكل شيءٍ علماً ولا يخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، وخلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه وهو أقرب إليه من حبل الوريد.

ثم إن النفس مولعة بحب العاجل فميزانها في تقويم الأمور والحكم عليها بالخيرية غالباً ما يكون قاصراً على أمور الدنيا ومحصوراً فيما تدركه بالحواس، أما الميزان الشرعي فهو أوسع من ذلك وأعمق وأبعد لأنه يتعلق بخير الدينا والآخرة، وهذا أمرٌ لا يحصِّله إلا الذين يؤمنون بالغيب ومنه إيمانهم باليوم الآخر والذي له أعظم تأثير في كبح جماح النفس عن الشرور ودفعها إلى سبُل الخير المتنوعة، وتأمل قول النبي صلى الله عليه وسلم : [عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له]، فهو بيِّنٌ فيما ذكرت.

وهذا المسلك في تقويم خيرية الأمور من أعظم الفوارق بين دين الرحمة الذي جاء من عند الله تعالى وبين ما سواه من النظم والسياسات والأديان التي لا يتعدى نظرها تحت قدميها، فعندما تقرأ قول الله تعالى : {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ من الأموالِ والأنفسِ وَالثَّمَرَاتِ} [البقرة/ ١٥٥]، ترى ما في ظاهر هذه الآية من الشدة والبلاء والضيق فهو خوفٌ وجوعٌ وقلة أموالٍ ورجال وثمرات، فبحسب الموازين الدنيوية القاصرة لا يُرى أيُّ خيرٍ في ذلك، وما الذي سيدعو الناس للصبر على مثل هذه الشدائد؟!.

إلا أن أهل الإيمان بالله واليوم الآخر المحتسبين فيما يصيبهم الذين يعلمون أن المكافأة لا تتوقف عند هذه الحياة يوقنون أن هناك خيراً عظيماً وجزاء كريماً قد ادُّخر لهم فتطمئن قلوبهم وتسكن نفوسهم فتنقلب شدتهم رخاءً وضيقهم سعةً ومحنتهم منحةً إذ قيل لهم {وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} [البقرة/ ١٥٥ – ١٥٧] والله تعالى أعلم.

[مجلة طلائع خراسان – العدد: ١٧]